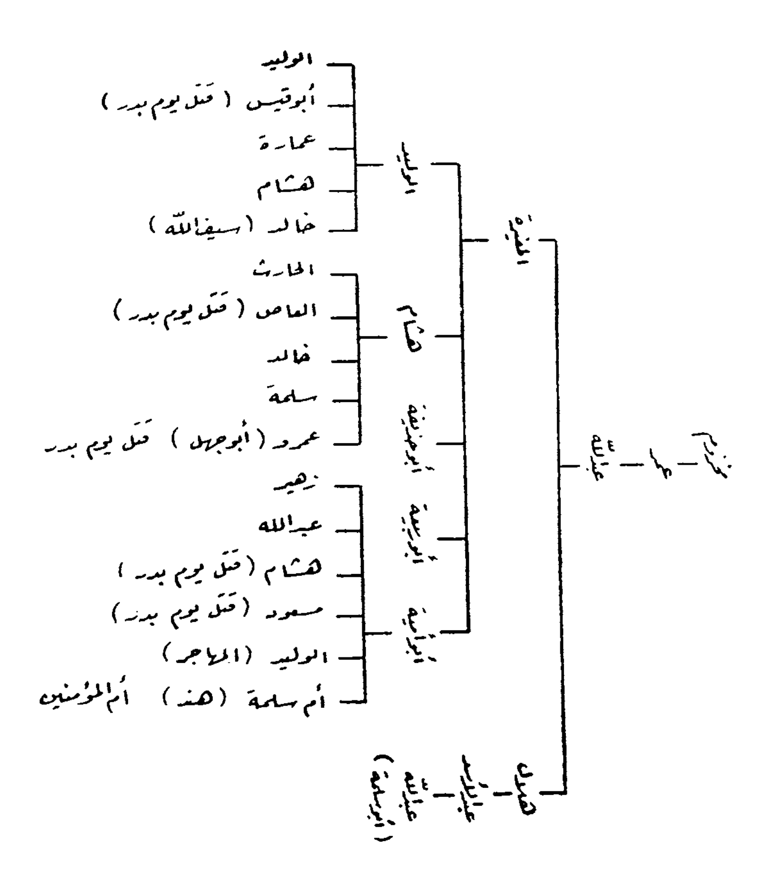
بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلَام

-٥-

ابنُ عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

زهير بن أبي أميّة

رضيَ اللهُ عَنْه


مخزوم
عمر
عبدالله
المغيرة
الوليد
الوليد
أبوقيس (قتل يوم بدر)
عمارة
هشام
خالد (سيف الله)
هشام
الحارث
العاص (قتل يوم بدر)
خالد
سلمة
عمرو (أبوجهل) قتل يوم بدر
أبوحذيفة
أبوربيعة
أبوأمية
زهير
عبدالله
هشام (قتل يوم بدر)
مسعود (قتل يوم بدر)
الوليد (المهاجر)
أم سلمة (هند) أم المؤمنين
هلال
عبدالأسد
عبدالله
(أبوسلمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ وَٱلصَّلَاةُ عَلَىٰ سَيِّدِ ٱلْمُرْسَلِينَ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ نَهْجِهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّين وَبَعْدُ: تُعَدُّ بَنُو مَخْزُومٍ أَشْهَرَ بُطُونِ قُرَيْشٍ ٱلاِثْنَيْ عَشَرَ بَعْدَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَ ٱلْمُغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمَخْزُومِيُّ أَجَلَّ رَجُلٍ فِيهَا، وَلَهُ عَدَدٌ مِنَ ٱلأَوْلَادِ، أَكْبَرُهُمْ أَبُو أُمَيَّةَ ٱلَّذِي وَرِثَ ٱلزَّعَامَةَ عَنْ أَبِيهِ، وَكَانَ عَلَىٰ دَرَجَةٍ مِنَ ٱلْكَرَمِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي مَوْكِبٍ لَا يَقْبَلُ أَنْ يَحْمِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ زَاداً أَوْ طَعَاماً، بل يَكْفِيهِمْ جَمِيعاً، لِذَا عُرِفَ بِٱسْمِ «زَادِ ٱلرَّكْبِ»، وَكَانَ أَكْبَرَ رَجُلٍ فِي قُرَيْشٍ عَامَ إِعَادَةِ بِنَاءِ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ إِثْرَ سَيْلٍ جَارِفٍ هَدَّمَهُ وَذٰلِكَ حَوَالَيِ ٱلْعَامِ ٱلْخَامِسِ وَٱلثَّلَاثِينَ مِنْ مَوْلِدِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ أَوْ فِي ٱلسَّنَةِ ٱلْخَامِسَةِ قَبْلَ ٱلْبِعْثَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ، وَهُوَ ٱلَّذِي أَشَارَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ بَعْدَ ٱخْتِلَافِهَا عَلَىٰ وَضْعِ ٱلْحَجَرِ ٱلأَسْوَدِ بِتَحْكِيمِ أَوَّلِ دَاخِلٍ، وَكَانَ أَنْ دَخَلَ ٱلأَمِينُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ ٱلصَّلَاةِ وَٱلسَّلَامِ، فَٱرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ:

قَبِلْنَا بِٱلأَمِينِ حَكَماً، فَمَا كَانَ مِنْهُ ﷺ إلاَّ أَنْ بَسَطَ رِدَاءَهُ، وَحَمَلَ ٱلْحَجَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ ٱلشَّرِيفَتَيْنِ، وَوَضَعَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْ رَئِيسِ كُلِّ قَبِيلَةٍ أَنْ يَأْخُذَ بِطَرَفٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِذَا وَصَلُوا إِلَىٰ ٱلْمَكَانِ ٱلْمَطْلُوبِ، أَخَذَ ﷺ ٱلْحَجَرَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ، وَوَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ.

وَكَانَ هٰذَا ٱلسَّيِّدُ ٱلْمُطَاعُ أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ ٱلْمُغِيرَةِ قَدْ تَزَوَّجَ عَاتِكَةَ بِنْتَ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ فَوَلَدَتْ لَهُ زُهَيْراً وَعَبْدَ ٱللهِ، وَهِيَ عَمَّةُ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، كَمَا تَزَوَّجَ أَيْضاً عَاتِكَةَ بِنْتَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ مَالِكٍ ٱلْكِنَانِيَّةَ فَأَنْجَبَتْ لَهُ هِشَاماً، وَمَسْعُوداً، وَٱلْوَلِيدَ ٱلَّذِي سَمَّاهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلْمُهَاجِرَ، وَهِنْدَ (أُمَّ سَلَمَةَ) أُمَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا.

وَتُوُفِّيَ أَبُو أُمَيَّةَ، وَوَرِثَ عَنْهُ ٱبْنُهُ زُهَيْرُ ٱبْنُ عَمَّةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ٱلْمَجْدَ وَٱلسُّؤْدُدَ، وَنَشَأَ سَيِّداً مِنْ سَادَاتِ بَنِي مَخْزُومٍ، وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَلٰكِنَّهُ مَعَ وُجُودِ أَعْمَامِهِ وَخَاصَّةً ٱلْوَلِيدَ ٱبْنَ ٱلْمُغِيرَةِ كَانَ يُعَدُّ شَرِيفاً مِنَ ٱلدَّرَجَةِ ٱلثَّانِيَةِ فِي بَنِي مَخْزُومٍ ٱحْتِرَاماً لأَعْمَامِهِ وَتَوْقِيراً لَهُمْ.

وَبُعِثَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ، وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ

مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلسَّادَاتِ وَأَبْنَائِهِمْ، وَمِنْهُمْ أَصْحَابُ ٱلْفِكْرِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلرَّأْيِ ٱلسَّدِيدِ، وَمِنْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ، أَمَّا ٱلزُّعَمَاءُ وَكِبَارُ ٱلْقَوْمِ فَقَدْ رَأَوْا فِي ٱتِّبَاعِهِمْ مُحَمَّداً ضَيَاعاً لِزَعَامَتِهِمْ، وَخَسَارَةً لِمَرْكَزِهِمْ، فَوَقَفُوا فِي وَجْهِ ٱلدَّعْوَةِ، وَعَمِلُوا جُهْدَهُمْ فِي مُحَارَبَتِهَا، إِذْ أَنَّ ٱلْوَجَاهَةَ كَثِيراً ما تُعْمِي وَتُصِمُّ عَنِ ٱلْحَقِّ، وَإِنَّ طَلَبَ ٱلدُّنْيَا كَثِيراً مَا يُودِي بِٱلْمَرْءِ إِلَىٰ ٱلْهَلَاكِ، فَلَمْ يَرَ هٰؤُلَاءِ ٱلْوُجَهَاءُ أَمَامَهُمْ إِلاَّ ٱلزَّعَامَةَ، وَلَمْ يَشْعُرُوا إِلاَّ بِٱلْغَطْرَسَةِ وَٱلتَّكَبُّرِ، وَظَنُّوا بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ أَيَّةِ قُوَّةٍ مَهْمَا عَلَتْ، وَأَنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْحَقِّ مَهْمَا ٱرْتَفَعَ، وَلٰكِنْ خَابَ ظَنُّهُمْ، وَضَاعَ تَفْكِيرُهُمْ، فَإِذَا ٱلْبَاطِلُ يَسْقُطُ صَرِيعاً، وَيَعْلُو ٱلْحَقُّ عَلَيْهِ، وَيَظْهَرُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، فَمَنْ أَدْرَكَ نَفْسَهُ وَٱتَّبَعَ ٱلْحَقَّ نَجَا: وَمَنِ ٱسْتَمَرَّ عَلَىٰ بَاطِلِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةَ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ.

وَكَانَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلنَّفَرِ ٱبْنُ عَمَّةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ إِذْ أَرَادَ أَنْ يَحْتَفِظَ لِنَفْسِهِ بِمَوْقِعِهِ مَعَ كِبَارِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ مِنْهُمْ، وَأَلاَّ يَضِيعَ مَرْكَزُهُ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ أَحَدُهُمْ، إِذْ حَجَبَتِ ٱلزَّعَامَةُ ٱلنُّورَ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَحَالَتْ دُونَ تَفْكِيرِهِ، وَوَقَفَ طَلَبُ ٱلدُّنْيَا دُونَ وُصُولِهِ إِلَىٰ ٱلْحَقِيقَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي ٱلْوَقْتِ

نَفْسِهِ قَلِيلَ ٱلْحَرْبِ لِلدَّعْوَةِ ٱلإِسْلاَمِيَّةِ، وَمُهَادِناً لَهَا أَشَدَّ ٱلْمُهَادَنَةِ، بَلْ كَثِيراً مَا كَانَ يَمِيلُ نَحْوَ صَاحِبِهَا ﷺ، لاَ لِقُرْبِهِ مِنْهُ، وَإِنَّمَا لِمَا يَجِدُ فِي ٱلإِسْلاَمِ مِمَّا يَتَّفِقُ مَعَ ٱلْعَقْلِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلْفِطْرَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ.

وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ يَمْدَحُ ٱلنَّفَرَ ٱلَّذِينَ يُسَانِدُونَهُ فِي دَعْمِهِ لاَبْنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَاصَّةً ٱلسَّادَةَ مِنْهُمْ، لِيَسْتَمِيلَهُمْ إِلَيْهِ، وَيَبْقُوا بِجَانِبِهِ، وَفِي إِحْدَىٰ قَصَائِدِهِ ذَكَرَ ٱبْنَ أُخْتِهِ زُهَيْراً هٰذا بِقَوْلِهِ:

وَنِعْمَ ٱبْنُ أُخْتِ ٱلْقَوْمِ غَيْرَ مُكَذَّبٍ
زُهَيْراً حُسَاماً مُفْرَداً مِنْ حَمَائِلِ
أَشَمُّ مِنَ ٱلشُّمِّ ٱلْبَهَالِيلِ يَنْتَمِي
إِلَىٰ حَسَبٍ فِي حَوْمَةِ ٱلْمَجْدِ فَاضِلِ

وَٱشْتَدَّ أَذَىٰ قُرَيْشٍ، وَوَقَفَ أَبُو طَالِبٍ يَحْمِي رَسُولَ ٱللهِ ﷺ، وَيَذُودُ عَنْهُ، وَوَقَفَ مَعَهُ بَنُو هَاشِمٍ بِٱسْتِثْنَاءِ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ (عَبْدِ العُزَّى بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ)، ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشاً قَرَّرَتْ مُقَاطَعَةَ بَنِي هَاشِمٍ وَعَدَمَ مُبَايَعَتِهِمْ أَوْ مُنَاكَحَتِهِمْ، فَٱنْزَوَوْا إِلَىٰ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَدَخَلَ مَعَهُمُ ٱلشِّعْبَ بَنُو عَمِّهِمْ بَنُو ٱلْمُطَّلِبِ، بَيْنَمَا ٱنْخَذَلَ عَنْهُمْ بَنُو عَمَّيْهِمْ بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ، وَبَنُو

نَوْفَلٍ ٱبْنَا عَبْدِ مَنَافٍ. وَبَقُوا فِي ٱلشِّعْبِ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَلاَثَةِ أَعْوَامٍ، لاَقَوْا فِيهَا ٱلْعَذَابَ، وَأَكَلُوا وَرَقَ ٱلشَّجَرِ، عَلَىٰ حِينَ كَانَتْ قُرَيْشٌ فِي حَرَمِهَا تُتَاجِرُ، وَتَعِيشُ بِطُمَأْنِينَةٍ وَرَخَاءٍ.

لَمْ يَطْلُبْ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مِنْ بَقِيَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَعَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي ٱلْمُطَّلِبِ فِي ٱلشِّعْبِ، وَإِنَّمَا طَلَبَ مِنْهُمُ ٱلاتِّجَاهَ إِلَىٰ ٱلْحَبَشَةِ، فَكَانَتْ هِجْرَةُ ٱلْحَبَشَةِ ٱلثَّانِيَةُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلْهِجْرَةَ لِسَبَبٍ مِنَ ٱلأَسْبَابِ كَأَنْ يَمْنَعُهُ أَهْلُهُ أَوْ يَحْبِسُهُ قَوْمُهُ أَوْ كَانَ مِنَ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ وَٱلْمَوَالِي فَقَدْ بَقِيَ فِي مَكَّةَ مَعَ قُرَيْشٍ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ ذَا مَرْكَزٍ كَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَمَا ذٰلِكَ ٱلْمَنْعُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ ٱلدُّخُولِ فِي ٱلشِّعْبِ لِلْمُسْلِمِينَ إِلاَّ لِيَمْنَعَهُمْ مِنْ أَنْ يَعِيشُوا فِي حِمَىٰ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. أَمَّا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو ٱلْمُطَّلِبِ فَقَدْ دَخَلُوا فِي ٱلشِّعْبِ كُلُّهُمْ، مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، وَكَانَتِ ٱلْكَلِمَةُ فِيهِ لِلْجَاهِلِيَّةِ بِٱسْتِثْنَاءِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، بَلْ كَانَ ٱلدُّخُولُ كُلُّهُ مِنْ أَجْلِهِ وَٱلْمُقَاطَعَةُ بِسَبَبِهِ، وَكَانَ إِذَا آوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلاَةُ وَٱلسَّلاَمُ، وَرَأَىٰ ٱلنَّاسُ مَكَانَهُ جَاءَ أَبُو طَالِبٍ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُغَيِّرَ مَكَانَ نَوْمِهِ، وَطَلَبَ مِنْ أَحَدِ أَبْنَائِهِ أَوْ أَقْرِبَائِهِ أَنْ يَنَامَ مَكَانَهُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ قَدْ بَيَّتَ بَعْضُهُمُ ٱلْغَدْرَ بِرَسُولِ ٱللهِ أَصَابَ

غَيْرَهُ. فَٱلْمُسْلِمُونَ كَجَمَاعَةٍ لاَ تَدْخُلُ بِمَجْمُوعِهَا فِي حِمَىٰ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا لاَ يَدْخُلُ عُضْوٌ فِي حِمَىٰ جَمَاعَةٍ؛ إِذْ تَذُوبُ شَخْصِيَّتُهُ ضِمْنَهَا، أَمَّا كَأَفْرَادٍ تَحْمِيهِمْ عُصْبَتُهُمْ أَوْ يَمْنَعُهُمْ قَوْمُهُمْ فَهَذَا أَمْرٌ آخَرُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقْبَلَ، فَقَدْ دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فِي جِوَارِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فِي جِوَارِ ٱبْنِ ٱلدُّغُنَّةِ، وَدَخَلَ أَبُو سَلَمَةَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱلأَسَدِ ٱلْمَخْزُومِيُّ فِي جِوَارِ خَالِهِ أَبِي طَالِبٍ، وَفَوْقَ كُلِّ هٰذَا دَخَلَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ فِي جِوَارِ ٱلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، وَكَذٰلِكَ فَٱلدُّخُولُ إِلَىٰ ٱلشِّعْبِ يُعَدُّ جِوَاراً إِلاَّ أَنَّ ٱلصِّفَةَ ٱلْفَرْدِيَّةَ هِيَ ٱلَّتِي كَانَتْ وَاضِحَةَ ٱلسِّمَةِ، وَمَعَ هٰذَا فَٱلرَّسُولُ ﷺ كَانَ ٱلْعُنْصُرَ ٱلْمُحَرِّكَ فِيهَا وَٱلأَسَاسِيَّ، وَلَمْ يَكُنْ لِتَفْرِضَ عَلَيْهِ ٱلْجَاهِلِيَّةُ كَلِمَتَهَا، إِذْ أَنَّ ٱلْحِصَارَ كُلَّهُ كَانَ مِنْ أَجْلِ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم.

وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَعْوَامٍ مِنَ ٱلْبَقَاءِ فِي ٱلشِّعْبِ مَشَىٰ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو وَكَانَ قَرِيباً لِبَنِي هَاشِمٍ، وَاصِلاً لَهُمْ، يُرْسِلُ إِلَيْهِمُ ٱلطَّعَامَ سِرّاً، وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِي قَوْمِهِ، فَمَشَىٰ إِلَىٰ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ ٱلْمَخْزُومِيِّ، وَقَالَ لَهُ: يا زُهَيْرُ، أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ تَأْكُلَ ٱلطَّعَامَ، وَتَلْبَسَ ٱلثِّيَابَ، وَتَنْكَحَ ٱلنِّسَاءَ، وَأَخْوَالُكَ حَيْثُ قَدْ

عَلِمْتَ، لاَ يُبَاعُونَ وَلاَ يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، وَلاَ يُنْكَحُونَ وَلاَ يُنْكَحُ إِلَيْهِمْ؟ أَمَا إِنِّي أَحْلِفُ بِٱللهِ: أَنْ لَوْ كَانُوا أَخْوَالَ أَبِي ٱلْحَكَمِ ابْنِ هِشَامٍ، ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَىٰ مِثْلِ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، مَا أَجَابَكَ إِلَيْهِ أَبَداً، قَالَ: وَيْحَكَ يَا هِشَامُ فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَٱللهِ لَوْ كَانَ مَعِي رَجُلٌ آخَرُ لَقُمْتُ فِي نَقْضِهَا حَتَّىٰ أَنْقُضَهَا، قَالَ: قَدْ وَجَدْتُ رَجُلاً لَكَ، قَالَ: فَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: أَنَا، قَالَ لَهُ زُهَيْرٌ: أَبْغِنَا رَجُلاً ثَالِثاً.

وَسَارَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو إِلَىٰ ٱلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلِ ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَقَالَ لَهُ: يَا مُطْعِمُ، أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَنْتَ شَاهِدٌ عَلَىٰ ذٰلِكَ، مُوَافِقٌ لِقُرَيْشٍ فِيهِ، أَمَا وَٱللهِ لَئِنْ أَمْكَنْتُمُوهُمْ مِنْ هٰذِهِ لَتَجِدَنَّهُمْ إِلَيْهَا مِنْكُمْ سِرَاعاً، قَالَ: وَيْحَكَ، فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، قَالَ: قَدْ وَجَدْتُ ثَانِياً، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: أَنَا، قَالَ: ٱبْغِنَا ثَالِثاً، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ ٱبْغِنَا رَابِعاً. ثُمَّ ذَهَبَ هِشَامٌ إِلَىٰ أَبِي ٱلْبَخْتَرِيِّ بْنِ هِشَامٍ، فَكَسِبَهُ إِلَىٰ صُفُوفِهِمْ، وَمِنْ عِنْدِهِ ٱنْتَقَلَ إِلَىٰ زَمَعَةَ بْنِ ٱلأَسْوَدِ الأَسَدِيِّ، فَكَلَّمَهُ فِي ٱلأَمْرِ، فَوَافَقَهُ عَلَىٰ مَا وَافَقَ عَلَيْهِ ٱلآخَرُونَ.

وَتَوَاعَدَ هٰؤُلاءِ ٱلنَّفَرُ (خَطْمَ ٱلْحَجُونِ) لَيْلاً بِأَعْلَىٰ مَكَّةَ، فَٱجْتَمَعُوا هُنَالِكَ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، وَتَعَاقَدُوا عَلَىٰ ٱلْقِيَامِ فِي ٱلصَّحِيفَةِ حَتَّىٰ يَنْقُضُوهَا، وَقَالَ زُهَيْرٌ: أَنَا أَبْدَؤُكُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَتَكَلَّمُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَىٰ أَنْدِيَتِهِمْ، وَغَدَا زُهَيْرُ ابْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، فَطَافَ بِٱلْبَيْتِ سَبْعاً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَنَلْبَسُ ٱلثِّيَابَ، وَبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَىٰ، لاَ يُبَاعُ وَلاَ يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، وَٱللهِ لاَ أَقْعُدُ حَتَّىٰ تُشَقَّ هٰذِهِ ٱلصَّحِيفَةُ ٱلْقَاطِعَةُ ٱلظَّالِمَةُ. فَرَدَّ عَلَيْهُ أَبُو جَهْلٍ، وَكَانَ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ، وَقَالَ: كَذَبْتَ وَٱللهِ لا تُشَقُّ، إِلاَّ أَنَّ زَمَعَةَ صَدَّقَ زُهَيْراً، وَقَالَ: مَا رَضِينَا كِتَابَتَهَا حَيْثُ كُتِبَتْ، قَالَ أَبُو ٱلْبَخْتَرِيِّ: صَدَقَ زَمَعَةُ، لاَ نَرْضَىٰ مَا كُتِبَ فِيهَا، وَلاَ نُقِرُّ بِهِ، ثُمَّ صَدَّقَ ٱلْمُطْعِمُ مَا قَالَهُ أَصْحَابُهُ، وَكَذَّبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذٰلِكَ، وَتَبَرَّأَ إِلَىٰ ٱللهِ مِنْهَا، وَمِمَّا كُتِبَ فِيهَا، وَأَيَّدَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو رِفَاقَهُ، فَقَامَ ٱلْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ إِلَىٰ ٱلصَّحِيفَةِ لِيَشُقَّهَا، فَوَجَدَ ٱلأَرَضَةَ قَدْ أَكَلَتْهَا إِلاَّ «بِٱسْمِكَ ٱللَّهُمَّ».

عَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْقِفِ ٱلنَّبِيلِ وَٱلتَّعَاطُفِ ٱلَّذِي كَانَ يُبْدِيهِ زُهَيْرٌ تِجَاهَ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَعَدَمِ إِظْهَارِ ٱلْعِدَاءِ ٱلْوَاضِحِ

ٱلَّذِي كَانَ يَبْدُو مِنْ بَقِيَّةِ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ ، إِلاَّ أَنَّ زُهَيْراً بَقِيَ فِي مَوْقِفِهِ ٱلْمُتَنَكِّرِ لِلإِسْلاَمِ ، وَمُعَارَضَتِهِ لاَبْنِ خَالِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ رَسُولِ ٱللهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ ٱلصَّلاَةِ وَٱلسَّلاَمِ ، إِذِ ٱسْتَمَرَّ يَشْعُرُ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ وُجَهَاءِ قُرَيْشٍ ، وَيَجِبُ أَلاَّ يَتَخَلَّىٰ عَنْ مَوْقِفِهِ أَبَداً كَبَقِيَّةِ ٱلْوُجَهَاءِ ، إِذْ فِي تَخَلِّيهِ عَيْبٌ وَاضِحٌ ، وَضَعْفٌ لِمَرْكَزِهِ ٱلْمَرْمُوقِ بَيْنَ أَفْرَادِ ٱلْقَبِيلَةِ جَمِيعِهِمْ ـ حَسْبَ ٱلْمَفْهُومِ ٱلْجَاهِلِيِّ ـ ، وَهٰذَا لَيْسَ بِٱلأَمْرِ ٱلْغَرِيبِ فَإِنَّ خَالَهُ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَثِقُ بِٱبْنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِكُلِّ مَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْنَىٰ ٱلثِّقَةِ ، وَيَحْمِيهِ دُونَ أَنْ يُمَكِّنَ قُرَيْشاً مِنَ ٱلْقِيَامِ بِعَمَلٍ ضِدَّهُ ، بَلْ إِذَا أَخْبَرَهُ مُحَمَّدٌ بِأَمْرٍ غَيْبِيٍّ يَقُولُ لَهُ : أَرَبُّكَ أَخْبَرَكَ ؟ فَإِنْ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : نَعَمْ ، صَدَّقَ أَبُو طَالِبٍ ٱبْنَ أَخِيهِ ، بَلْ أَعْلَنَ ذٰلِكَ لِقَوْمِهِ ، وَٱفْتَخَرَ فِي هٰذَا ، وَأَنَّ ٱبْنَ أَخِيهِ صَادِقٌ ، وَلاَ يَقُولُ إِلاَّ حَقّاً ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ يُؤْمِنْ ، إِذْ وَجَدَ أَنَّ فِي إِيمَانِهِ إِضَاعَةً لِمَرْكَزِهِ بَيْنَ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ وَسَادَتِهَا ، وَكَانَ يَخْشَىٰ أَنْ تَقُولَ ٱلْقَبِيلَةُ : صَبَأَ أَبُو طَالِبٍ ، أَوِ ٱتَّبَعَ مُحَمَّداً .

وَتَرَكَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلأَوَائِلُ مَكَّةَ ٱلْمُكَرَّمَةَ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ ، وَهَاجَرُوا إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ ، وَبَقِيَ زُهَيْرٌ عَلَىٰ مَوْقِفِهِ

ٱلأَوَّلِ لاَ يَتَزَحْزَحُ عَنْهُ، يَعِيشُ سَيِّداً فِي مَكَّةَ، وَعَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنَ ٱلاَنْتِصَارَاتِ ٱلَّتِي أَحْرَزَهَا ٱلْمُسْلِمُونَ، وَٱلدَّعْمِ ٱلَّذِي كَانُوا يَلْقَوْنَهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ، وَلَوْلاَهُ لَمَا كَانَ ٱنْتِصَارٌ، بَلْ لاَ يُمْكِنُ تَفْسِيرُ تِلْكَ ٱلاَنْتِصَارَاتِ إِلاَّ بِهِ، فَلَمْ يَكُنِ ٱلْعَدَدُ لِيَتَسَاوَىٰ، وَلَمْ تَكُنِ ٱلْعُدَدُ لِتَتَعَادَلَ وَمَعَ ذٰلِكَ فَٱلنَّصْرُ كَانَ دَائِماً بِجَانِبِ ٱلْمُسْلِمِينَ، إِلاَّ أَنَّ زُهَيْراً لَمْ يَأْبَهْ بِٱلأَمْرِ كَثِيراً، بَلْ لَمْ يُعْمِلْ عَقْلَهُ فِي ذٰلِكَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ وَٱلنُّورِ ٱلسَّاطِعِ ٱلَّذِي عَمَّ سَنَاهُ مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَٱلْمَدِينَةِ وَمَا جَاوَرَهُمَا.

وَسَارَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ بِٱتِّجَاهِ ٱلْمَدِينَةِ تُرِيدُ تَأْدِيبَ ٱلْمُسْلِمِينَ ـ حَسْبَ زَعْمِهَا ـ وَٱلْقَضَاءَ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ ٱلْكُبْرَىٰ بَيْنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ، وَكَانَتْ فُرْقَاناً بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ، ٱنْتَصَرَ فِيهِ ٱلْحَقُّ وَٱتَّضَحَ، وَهُزِمَ ٱلْبَاطِلُ وَٱخْتَفَىٰ، وَفَقَدَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ أَرْضِ ٱلْمَعْرَكَةِ سَبْعِينَ قَتِيلاً، وَمِثْلَهُمْ أَسْرَىٰ بِيَدِ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ بَيْنَ ٱلْقَتْلَىٰ أَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بْنُ هِشَامِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ، وَأَخُوهُ ٱلْعَاصُ ٱبْنَا عَمِّ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ ابْنِ ٱلْمُغِيرَةِ، وَٱبْنُ عَمِّهِ ٱلآخَرِ أَبُو قَيْسِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ، وَأَخَوَا زُهَيْرٍ بِٱلذَّاتِ وَهُمَا: هِشَامٌ وَمَسْعُودٌ، وَمَعَ هٰذِهِ ٱلْفَاجِعَةِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُرَيْشٍ عَامَّةً وَبِٱلنِّسْبَةِ إِلَىٰ زُهَيْرٍ خَاصَّةً، إِلاَّ أَنَّ

زُهَيْراً لَمْ يَزْدَدْ حِقْدُهُ وَلَمْ يُغَيِّرْ مَوْقِفَهُ، وَلَمْ يُفَكِّرْ بِٱلاَنْتِقَامِ أَوْ بِٱلْغَدْرِ كَمَا حَاوَلَ غَيْرُهُ، وَكَمَا فَكَّرَ آخَرُونَ.

وَقَوِيَتْ شَوْكَةُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱتَّجَهُوا نَحْوَ مَكَّةَ فَاتِحِينَ، وَوَصَلَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَنَزَلَ بِأَعْلاَهَا، وَعِنْدَهَا شَعَرَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بِٱلْخَطَرِ، وَرَأَىٰ أَنَّهُ يُحْدِقُ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَنَّهَا ٱلْقُوَّةُ، وَأَنَّهُ ٱلْمُلْكُ، فَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ أَنْ يُفَكِّرَ فِي ٱلنَّجَاةِ، إِذْ خَافَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَأَرْشَدَهُ عَقْلُهُ أَنْ يَسْتَجِيرَ بِٱبْنَةِ خَالِهِ أُمِّ هَانِىءٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ، وَكَانَتْ عِنْدَ ٱبْنِ عَمِّهِ هُبَيْرَةَ بْنِ أَبِي وَهْبٍ ٱلْمَخْزُومِيِّ، فَٱسْتَجَارَ بِهَا هُوَ وَٱبْنُ عَمِّهِ ٱلْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ أَخُو أَبِي جَهْلٍ، فَأَجَارَتْهُمَا، تَقُولُ أُمُّ هَانِىءٍ: فَدَخَلَ عَلَيَّ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَخِي، فَقَالَ: وَٱللهِ لأَقْتُلَنَّهُمَا، فَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِمَا بَابَ بَيْتِي، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ، وَهُوَ بِأَعْلَىٰ مَكَّةَ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ فِي جَفْنَةٍ فِيهَا أَثَرُ ٱلْعَجِينِ، وَفَاطِمَةُ ٱبْنَتُهُ تَسْتُرُهُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا ٱغْتَسَلَ أَخَذَ ثَوْبَهُ فَتَوَشَّحَ بِهِ، ثُمَّ صَلَّىٰ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مِنَ ٱلضُّحَىٰ، ثُمَّ ٱنْصَرَفَ إِلَيَّ، فَقَالَ: مَرْحَباً وَأَهْلاً يَا أُمَّ هَانِىءٍ، مَا جَاءَ بِكِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَ ٱلرَّجُلَيْنِ وَخَبَرَ عَلِيٍّ، فَقَالَ: قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ، وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ، فَلاَ يَقْتُلْهُمَا.

وَدَخَلَ زُهَيْرٌ فِي ٱلإِسْلَامِ مَعَ مَنْ دَخَلَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَكَانَ مِنَ ٱلطُّلَقَاءِ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هٰذَا ٱلدُّخُولَ إِنَّمَا كَانَ بِالتَّبَعِيَّةِ مَعَ قَوْمِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَتْبُوعِينَ.

وَصَلَتْ أَخْبَارُ فَتْحِ ٱلْمُسْلِمِينَ لِمَكَّةَ إِلَىٰ قَبَائِلِ ٱلْعَرَبِ كُلِّهَا، فَهَالَهَا ٱلأَمْرُ، وَتَخَوَّفَتِ ٱلْقَبَائِلُ ٱلْقَرِيبَةُ، وَأَرَادَتْ إِبْرَازَ كِيَانِهَا، وَمِنْهَا هَوَازِنُ ٱلَّتِي تُقِيمُ فِي شَرْقِ مَكَّةَ بِٱلْقُرْبِ مِنْ ثَقِيفٍ، إِذْ جَمَعَهَا مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ ٱلنَّصْرِيُّ، وَٱنْضَمَّتْ إِلَيْهَا كُلٌّ مِنْ ثَقِيفٍ وَنَصْرٍ وَجُشَمٍ وَسَعْدِ بْنِ بَكْرٍ وَبَعْضُ بَنِي هِلَالٍ، وَلَمَّا سَمِعَ بِذٰلِكَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ أَجْمَعَ ٱلسَّيْرَ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ ٱلَّذِينَ جَاءُوا مَعَهُ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ وَعَدَدُهُمْ عَشَرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَٱنْضَمَّ إِلَيْهِمْ أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ ٱلطُّلَقَاءِ، وَفِيهِمْ وُجَهَاءُ ٱلْقَوْمِ إِذْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمُ ٱلْخُرُوجُ، فَلَوْ تَخَلَّفُوا لَعُدُّوا مُحَارِبِينَ أَيْضاً وَمُتَخَاذِلِينَ، بَلْ غَيْرَ مُؤْمِنِينَ، وَلَرُبَّمَا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَدْخُلِ ٱلإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَىٰ هٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمِنْ وُجَهَاءِ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ سَارُوا مَعَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ أَبُو سُفْيَانَ، وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ٱلْمَخْزُومِيُّ، وَأَبْنَاءُ عَمِّ زُهَيْرٍ ٱلْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ وَأَخُوهُ خَالِدٌ، وَهُمَا أَخَوَا أَبِي جَهْلٍ، وَهِشَامُ بْنُ

ٱلْوَلِيدِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ، أَخُو خَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ مِثْلُ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَأَخِيهِ.

وَفِي وَادِي حُنَيْنٍ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ، وَكَانَتْ هَوَازِنُ قَدْ سَبَقَتْ وَجُمُوعُهَا إِلَىٰ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ، وَكَمَنَتْ فِي بَعْضِ شِعَابِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ ٱلْوَادِي فُوجِئُوا بِٱلإِغَارَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَلَمَّا كَانَ مَعَهُمْ بَعْضُ ٱلطُّلَقَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِحَقٍّ لِذَا وَلَّوُا ٱلأَدْبَارَ، وَتَرَكُوا أَرْضَ ٱلْمَعْرَكَةِ، وَلَحِقَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْمُقَاتِلِينَ، وَأَغْلَبُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ ٱلطُّلَقَاءِ، وَعَلَىٰ هٰذَا فَٱلْمُنَافِقُونَ أَوِ ٱلْكُفَّارُ لاَ يَزِيدُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ قُوَّةً إِنْ كَانُوا مَعَهُمْ، وَإِنَّمَا يُضْعِفُونَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَيُقَلِّلُونَ مِنْ عَزِيمَتِهِمْ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ ٱلْمُسْلِمِينَ رَأَوْا فِي ٱلْكَثْرَةِ قُوَّةً، إِلاَّ أَنَّ ٱلْكَثْرَةَ بِدُونِ إِيمَانٍ لَنْ تُفِيدَ شَيْئاً «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ»[1]. فَوَلَّىٰ أَكْثَرُ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلأَدْبَارَ، وَثَبَتَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ وَبَعْضُ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَشَمِتَ بَعْضُ ٱلطُّلَقَاءِ. وَقَالُوا: بَطَلَ ٱلسِّحْرُ، إِلاَّ أَنَّ ثَبَاتَ رَسُولِ ٱللهِ وَمُنَادَاةَ ٱلْعَبَّاسِ

---

(١) التوبة آية: ٢٥.

رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَدْ أَعَادَا ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ رُشْدِهِمْ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ وَٱلْتَفُّوا حَوْلَهُ وَجَاءَهُمُ ٱلْمَدَدُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ، وَحَمَلُوا عَلَىٰ ٱلْمُشْرِكِينَ حَمْلَةً وَاحِدَةً أَزَالَتْهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ ثُمَّ فَرُّوا هَارِبِينَ، وَقَدْ رَبِحَ ٱلْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَ كَثِيرَةً.

وَفَرَّتْ ثَقِيفٌ وَبَعْضُ مَنْ مَعَهَا إِلَىٰ ٱلطَّائِفِ وَتَحَصَّنَتْ بِهَا، فَلَحِقَهَا ٱلْمُسْلِمُونَ، وَحَاصَرُوا ٱلطَّائِفَ، ثُمَّ تَرَكُوهَا بَعْدَ قِتَالٍ وَمُفَاوَضَاتٍ، وَأَثْنَاءَ ٱلْعَوْدَةِ وَفِي مِنْطَقَةِ «ٱلْجِعْرَانَةِ» قَسَمَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلْغَنَائِمَ، فَأَعْطَىٰ ٱلْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا، فَقَدْ أَعْطَىٰ أَبَا سُفْيَانَ وَٱبْنَهُ مُعَاوِيَةَ وَزُهَيْرَ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ وَصَفْوَانَ ابْنَ أُمَيَّةَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِائَةَ نَاقَةٍ، وَعَلَىٰ هٰذَا يَكُونُ زُهَيْرٌ مِنْ وُجَهَاءِ ٱلْقَوْمِ أَوَّلاً وَمِنَ ٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ثَانِياً.

وَرَجَعَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَمَكَثَ فِيهَا قَلِيلاً، ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ، وَعَاشَ ٱلطُّلَقَاءُ فِي مَكَّةَ كُلٌّ يُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ، وَيَجِدُّ فِي إِعْمَالِ فِكْرِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ عَلَىٰ حَالِهِ مُؤْمِناً عَادِيّاً، وَمِنْهُمْ مَنِ ٱجْتَهَدَ فِي ٱلْعِبَادَةِ لِيُعَوِّضَ مَا فَاتَ، وَيُصَحِّحَ مَا كَانَ مِنْهُ، وَمِنْ هٰؤُلَاءِ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ٱلَّذِي نَدِمَ عَلَىٰ ما مَرَّ مِنْ أَيَّامِهِ، وَكَيْفَ كَانَ يُسَايِرُ سَرَاةَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ أَضَلُّوهُ ٱلسَّبِيلَ، وَٱلْوَاقِعُ أَنَّ زُهَيْراً لَمْ يَكُنْ إِمَّعَةً يَسِيرُ

مَعَ ٱلنَّاسِ ، يُعَادِي ٱلإِسْلاَمَ مَعَ قُرَيْشٍ ، وَيُسْلِمُ عِنْدَمَا يُسْلِمُونَ، وَيَغْزُو عِنْدَمَا يَغْزُونَ، وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْوَجَاهَةُ قَدْ أَعْمَتْهُ عَنِ ٱلْحَقِّ، وَٱلثَّرَاءُ سَيَأْتِي عَنْ طَرِيقِهَا، فَعِنْدَمَا أَخَذَ مِائَةَ بَعِيرٍ عَادَ إِلَىٰ صَوَابِهِ، وَشَعَرَ أَنَّ ٱلْمَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ، وَيَأْتِي مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَتِ ٱلزَّعَامَةُ هِيَ ٱلسَّبِيلُ إِلَيْهِ فَقَطْ، وَأَنَّ ٱلدُّنْيَا مُنْتَهِيَةٌ لاَ مَحَالَةَ وَسَيَذْهَبُ ٱلإِنْسَانُ بِلاَ مَالٍ وَلاَ يَسْتَفِيدُ إِلاَّ مِمَّا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ ، لِذَا بَدَأَ يَجْتَهِدُ فِي ٱلْعِبَادَةِ وَٱلطَّاعَةِ، وَيَمْحُو كُلَّ مَا كَانَ مِنْ سُلُوكِهِ ٱلسَّابِقِ .

وَمَضَىٰ عَامَانِ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُمَا، وَجَاءَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ مَكَّةَ حُجَّاجاً، وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْحِجَّةُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ ٱلصَّلاَةِ وَٱلسَّلاَمِ حِجَّةَ ٱلْوَدَاعِ ، وَٱلْتَقَىٰ زُهَيْرٌ بِنَبِيِّهِ وَتَعَلَّقَ بِهِ، وَقَرَّرَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ لِيَعِيشَ بِجَانِبِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ يَتَلَقَّىٰ مِنْهُ، وَيَنْهَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّبْعِ ٱلصَّافِي، إِلاَّ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ لَمْ تَطُلْ بِهِ ٱلْحَيَاةُ بَعْدَ حِجَّةِ ٱلْوَدَاعِ ، فَعَاشَ أَشْهُراً وَٱنْتَقَلَ إِثْرَهَا إِلَىٰ ٱلْحَيَاةِ ٱلآخِرَةِ، وَلَمْ تَعُدْ لِزُهَيْرٍ فَائِدَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلاَنْتِقَالِ .

ٱنْتَقَلَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَىٰ ٱلرَّفِيقِ ٱلأَعْلَىٰ، وَٱخْتَارَ ٱلْمُسْلِمُونَ خَلِيفَةً لَهُمْ أَبَا بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَطَمِعَ

ٱلأَعْرَابُ فِيمَا حَدَثَ، بَعْضُهُمْ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ ٱلزَّكَاةَ كَضَرِيبَةٍ لِنَفْسِهِ، وَيَمْتَنِعَ مِنْ دَفْعِهَا لِلدَّوْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَحَكَّمَ بِشُؤُونِ قَوْمِهِ حَسْبَ مَصْلَحَتِهِ تَبَعاً لِلْجَاهِلِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً قَبْلَ ٱلإِسْلاَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَفْهَمِ ٱلإِسْلاَمَ، وَلَمْ يَدْخُلِ ٱلإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، لٰكِنَّهُ وَجَدَ فِي ٱلنُّبُوَّةِ زَعَامَةً وَشُهْرَةً، فَٱدَّعَاهَا، وَمِنْهُمْ... وَمِنْهُمْ... وَٱرْتَدَّتْ أَكْثَرُ ٱلأَعْرَابِ وَأَهْلُ ٱلْقُرَىٰ وَٱلْبَوَادِي وَلَمْ يَبْقَ عَلَىٰ ٱلإِسْلاَمِ سِوَىٰ ٱلْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَٱلطَّائِفِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ قَدِ ٱشْرَأَبَّتْ لِلنِّفَاقِ فِي مَكَّةَ لَوْلاَ مَوْقِفُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَبَعْضِ ٱلْوُجَهَاءِ وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ.

أَعْلَنَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ٱلْحَرْبَ عَلَىٰ ٱلْمُرْتَدِّينَ، وَٱنْطَلَقَتْ إِلَيْهِمْ جُنْدُ ٱللهِ تَنْدَفِعُ نَحْوَهُمْ جَيْشاً إِثْرَ جَيْشٍ، وَكَتِيبَةً تِلْوَ كَتِيبَةٍ، يَنْخَرِطُ فِي صُفُوفِهَا ٱلْمُجَاهِدُونَ، وَيَسِيرُونَ فِي مَوْكِبٍ وَاحِدٍ، وَتَرَىٰ فِي هٰذَا ٱلْمَوْكِبِ ٱلشَّابَّ ٱلْيَافِعَ ٱلَّذِي دَفَعَهُ إِيمَانُهُ لِيَسْتَقْبِلَ شَبَابَهُ بِٱلْجِهَادِ عَسَىٰ أَنْ يَحْصَلَ عَلَىٰ ٱلشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يَمْتَدَّ بِهِ ٱلْعُمُرُ، أَوْ يَظْفَرَ بِٱلنَّصرِ فَيَرَىٰ رَايَةَ ٱلإِسْلاَمِ خَفَّاقَةً يَعِيشُ تَحْتَهَا ٱلنَّاسُ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَسَعَادَةٍ، وَتَرَىٰ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوكِبِ ٱلشَّيْخَ ٱلْهَرِمَ ٱلَّذِي لَمْ

تُقْعِدْهُ سِنُّهُ عَنِ ٱلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ يَبْغِي ٱلشَّهَادَةَ، وَلَطَالَمَا طَلَبَهَا وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا، وَلَعَلَّهَا تَكُونُ خَاتِمَةَ حَيَاتِهِ، فَيَحْصَلُ عَلَىٰ مَا سَعَىٰ إِلَيْهِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ.

كَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَقْرَأُ ٱلْقُرْآنَ ٱلْكَرِيمَ فِي ٱلْحَرَمِ، وَٱسْتَوْقَفَتْهُ آيَةُ «تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[1]، وَجَالَتْ فِي نَفْسِهِ ٱلْخَوَاطِرُ، أَيَّ عُلُوٍّ نَبْغِي بَعْدَ هٰذا ٱلعمُرِ ٱلَّذِي ٱنْقَضَىٰ، وَيَوْمَ طَلَبْنَاهُ لَمْ يُغْنِ عَنَّا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فَمَاذَا يُغْنِي فِي ٱلآخِرَةِ؟ إِنَّ ٱلْعُلُوَّ ٱلَّذِي نُرِيدُهُ ٱلآنَ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ وَٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لِنَرْتَفِعَ فِي ٱلآخِرَةِ، وَلِنُعَوِّضَ عَمَّا فَاتَنَا...

وَسَمِعَ زُهَيْرٌ أَنَّ كَتَائِبَ ٱللهِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَ ٱلْمُرْتَدِّينَ فَأَسْرَعَ لِلاَنْخِرَاطِ فِيهَا، وَوَدَّعَ مَكَّةَ وَدَاعَ مَنْ لاَ يُرِيدُ ٱلْعَوْدَةَ إِلَيْهَا، لِيَخْتِمَ حَيَاتَهُ بِٱلْجِهَادِ، عَسَىٰ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ أَيَّامِهِ ٱلَّتِي وَقَفَ فِيهَا فِي وَجْهِ ٱلدَّعْوَةِ...

---

(١) القصص آية: ٨٣.

وَسَارَ ٱلْجَيْشُ بِٱتِّجَاهِ ٱلشَّرْقِ، وَكَانَ زُهَيْرٌ فِيهِ، يَسِيرُ تَحْتَ لِوَاءِ ٱبْنِ عَمِّهِ خَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْبِقَهُ لِيَشْتَرِكَ فِي ٱلْمَعْرَكَةِ، وَلِيَخْضِبَ سَيْفَهُ بِدِمَاءِ أُولٰئِكَ ٱلْمُرْتَدِّينَ ٱلَّذِينَ أَغْرَتْهُمُ ٱلدُّنْيَا بِمَفَاتِنِهَا، وَأَغْوَاهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِغُرُورِهِ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَنَسَوْا مَا كَانَ يَنْسَاهُ فِي أَيَّامِهِ ٱلْخَالِيَةِ، يَسِيرُ وَيَذْكُرُ ٱلْمَاضِيَ ٱلَّذِي لاَ تُفَارِقُهُ صُورَتُهُ أَبداً، وَيَرْجُو ٱلشَّهَادَةَ، وَقَدْ ذَاقَ حَلاَوَةَ ٱلإِيمَانِ عَسَىٰ أَنْ تُكَفِّرَ عَنْهُ مَا تَلَوَّثَ مِنْ مَاضِيهِ، يَسِيرُ وَكَأَنَّهُ يُقْبِلُ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي تَبْدُو عَلاَئِمُهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ...

قَدْ طَالَتْ بِهِ ٱلْحَيَاةُ وَعَرَفَ حُلْوَهَا وَذَاقَ مُرَّهَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً فِيهَا، لَقَدْ تَذَوَّقَ حُلْوَهَا وَهُوَ وَجِيهٌ، وَشَعَرَ بِمُرِّهَا وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً، وَٱلآنَ فَأَمَلُهُ كَبِيرٌ بِأَنْ يَحْصَلَ عَلَىٰ ٱلشَّهَادَةِ لِيَجِدَ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْخَيْرَ ٱلْكَثِيرَ. يَتَذَكَّرُ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ فَتَنْفَرِجُ أَسَارِيرُهُ. وَيَتَصَوَّرُ أَنَّهَا وَرَاءَ ٱلشَّهَادَةِ فَيُقَطِّبُ وَجْهَهُ ٱسْتِعْدَاداً لِلْقِتَالِ، وَيُسْرِعُ فِي جِسْمِهِ ٱلْخَطْوَ، وَيُرْخِي لِفَرَسِهِ ٱلْعِنَانَ، لِيُسَابِقَ بَقِيَّةَ ٱلْجُنْدِ نَحْوَ ٱلْعَدُوِّ فَمَا يَشْعُرُ إِلاَّ وَجَوَادُهُ قَدْ تَقَدَّمَ عَلَىٰ جَوَادِ ٱلْقَائِدِ، فَيَعُودُ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَيَتَأَخَّرُ إِلَىٰ مَكَانِهِ.

وَٱلْتَقَىٰ ٱلْجَيْشَانِ جَيْشُ ٱلإِيمَانِ بِقِيَادَةِ خَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ ٱلْمَخْزُومِيِّ وَجَيْشُ ٱلْكُفْرِ بِإِمْرَةِ مُسَيْلَمَةَ ٱلْكَذَّابِ ٱلْحَنَفِيِّ، وَأُعْطِيَتِ ٱلأَوَامِرُ لِلْمُسْلِمِينَ بِٱلْقِتَالِ، وَكَانَ زُهَيْرٌ يَنْتَظِرُهَا فَٱنْدَفَعَ ٱنْدِفَاعاً نَحْوَ ٱلْمُرْتَدِّينَ لَمْ يَرْجِعْ بَعْدَهَا أَبَداً، ٱنْطَلَقَ ٱنْطِلاَقَةَ ٱلْمُوَدِّعِ، فَحَصَلَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ. ٱللهُ أَكْبَرُ لَقَدْ نَالَ ٱلشَّهَادَةَ، وَظَفِرَ بِمَا يُرِيدُ إِنَّهَا جَنَّاتُ ٱلْخُلْدِ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ ٱللهِ.. «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ. وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»[1].

صدق الله العظيم.

---

(١) الصف الآيات: ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣.